الفصل الرابع
التجلّي الإعلامي

أـ المستوى اللغوي :

بادئ ذي بدء لا بد من وقفة نتجه بها تجاه الدلالة اللغوية ، لنطلّ على هذا البحث الغيبي الشهودي الذي نطلق عليه اسم التجلّي الإعلامي مقابلاً لمصطلح النزول ، وفق جمع بين الموروث المخزون القديم والتطلعات المعاصرة ، جمع لا يشكل وليداً مشوّهاً بل هو انتصار للحقيقة .

بداية نفرّق بين ثلاثة مستويات لغوية في سياق القرآن الكريم :

١ـ نَزَل : وهو يفيد اللزومية ، فلا يحتاج إلى مفعول كما في الآية : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ [الحديد : ١٦] ومثله في اللزومية مصطلح تنزّل ، ويفيد النزول .

٢ـ أَنْزَل : يفيد التعدية ، ويفيد النزول دفعة واحدة ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ [الكهف : ١] ولكن هل نزل كل القرآن عند هذه الآية المكية ؟ بالطبع لا ، بل قصدت الكلية بالنظر إلى عالم الأزل وبالنظر إلى تمام النزول في نهاية البعثة الشريفة ، لأن فعل أنزل يفيد الكلية كما في الآية : ﴿ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ [المائدة : ١١٤] ، فلا شك أن المائدة كلّ لا يتجزّأ ، كما أن الإنزال عام ، ويمكن أن يقال : أُنزلت سورة الرحمن المكية ، وتنزّلت سورة البقرة ، باعتبار أن الأولى نزلت جملة واحدة ، ونزلت الأخيرة بالتنجيم مفرقة .

٣ـ نزّل : وهو يفيد التعدية ، ويفيد التنزيل تعدّداً مرة بعد مرة ، وهذا واضح في سياق القرآن : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء : ١٠٦] .

فالتكرار لا ينطبق على مصطلح الإنزال ، ونقرأ : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا ﴾ [الحشر : ٢١] فالمقصود لو جربنا هذا مرة واحدة لرأيت الجبل خاشعاً ، ولا يقصد حتماً تكرار النزول تهيئة للخشوع .

إن من وجوه الإعجاز اللغوي أن تجد نمطاً يحافظ على استعمالات الصيغ السابقة في مكانها المناسب ، والتنويع بين الكلية والجزئية ، وبين الوحدة والتكرار ، وبين الفعل والتفعيل ، منهج فكري يقدمه القرآن لاستخدام القدرات الذهنية والروحية فيما يحق الحق ويصل إلى الغاية المنشودة في الخير ، هذا واضح في دلالة النزول والإنزال والتنزيل .

هذا ما نحبذ الإمعان فيه ، بدلاً من التفريقات البسيطة التي يراها غير المسلمين سذاجة يتصف بها المؤمنون ، ولنقرأ ما سجّله الشيخ طاهر الجزائري رحمه الله : « النزول في كتاب الله عز وجل ثلاثة أنواع : نوع مقيّد بأنه من الله سبحانه ، ونوع مقيّد بأنه من السماء ، ونوع غير مقيد لا بهذا ولا بهذا ، أما النوع الأول فلم ير إلا في القرآن ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ [الأنعام : ١١٤] ، فالقرآن منزّل من الله تعالى وهو كلامه لا كلام غيره ، ولا يجوز إطلاق القول بأنه عبارةٌ عن كلامه ، وأما النوع الثاني فقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ [الفرقان : ٤٨] ، فعلم أنه من السماء ، وأما النوع الثالث فقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] [الفتح : ٤] .

---

(١) التبيان ، طاهر الجزائري ، ص/ ٦٤ .

ونعود إلى اللغة حتى نتجنب ظاهر القص ، ثم ندلف إلى التأويل ، فالنزول يقصد به الحلول ، مثل حلّ الأمير في المدينة ، ويُقصد به الحركة والانتقال من الأعلى إلى الأسفل كنزول ماء المطر ، والدلالتان : الهبوط والحلول لا تجوزان على خصوصية النص القرآني لقداسته ، فلا بد من الاستعانة بالمجاز ، لنصل إلى ما يليق .

إن هذا التجوز اللغوي غير مقتصر على الشيخ محمد عبده رحمه الله ولا على المعاصرين من بعده كما نلمح لأول وهلة في الدراسات اليوم ، فهو أصلاً مفهوم عند الصحابة ، فلا يجوز التنقّل الذي يفيد الجسمية ، كما لا يجوز الحلول ، لأن الألفاظ أعراض سيّالة تنتهي بمجرد النطق بها .

هذا إذا أردنا بالقرآن الصفة القديمة القائمة بذاته عز وجل ، أو أردنا الكلمات الحكيمة الأزلية المتجلية في اللفظ العربي ، فالصفة القديمة ومتعلقها من الكلمات الغيبية الأزلية تتنزّه عن الجسمية والحلول .

قال أبو شامة المقدسي بصدد تفسير الآية : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ [القدر : ١] « هذا المعنى مطرد في جميع ألفاظ الإنزال المضافة إلى القرآن أو إلى شيء منه ، يحتاج إلى نحو هذا التأويل أهل السنة المعتقدون قدم القرآن ، وأنه صفة قائمة بذات الله تعالى »[1] .

وقال الشيخ محمد عبده : عن الآية : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ [البقرة : ٩٩] : إن الوحي من الله للنبي ﷺ تنزيلاً وإنزالاً ونزولاً ، لبيان علو مرتبة الربوبية ، لا أن هناك نزولاً حسياً من مكان مرتفع إلى مكان منخفض[2] .

---

(١) المرشد الوجيز ، ص/ ١٤ .

(٢) حاشية على العقائد العضوية ، وراجع مناهل العرفان للزرقاني : ١/ ٣٤ ، ومذكرات علوم القرآن ، أحمد أحمد علي ص/ ١٧ .

إذن فاللجوء إلى المجاز لا يتصف باعتزال معاصر يتهم به الشيخ محمد عبده ، فما جاء به من لا يخالف السنة ، وكلامه أفضل وأنجع من تأويلات أخرى مثل قول الشيخ أحمد أحمد علي : « وأقرب المجازات أن يكون الكلام من باب المجاز بالحذف ، والمعنى نزول حامله ويكون كقوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ [الشعراء : ١٩٣] ، أو يكون من باب إطلاق الملزوم وهو النزول وإرادة العلم اللازم له بالمعنى الأول اللغوي وهو الهُوي ، فيكون معنى إنزال القرآن الإعلام به إعلاماً بلغ في القوة درجة الإعلام الناشئ من إنزال شيء من أعلى إلى أسفل »[1] .

وهكذا نرضى بالإعلام مساوقين النظرة القديمة والنظرة الحديثة ، بل إن النزول الحقيقي ليس يُقنع الإنسان اليوم ، لأن الجهات نسبية والأرض كروية ، فما هو أعلى عندنا أسفل عند غيرنا ، وليس ثمة جهة مطلقة ، إنه الإعلام بطريقة غيبية .

وتطور التقنيات يساعد اليوم على فهم هذه الطريقة الغيبية ، إنها الاتصالات الحديثة المدهشة إدهاشاً يقضي على معارف سابقة ثابتة ويثبت مفهوم الغيب في العقل ، فتنزيه علمائنا دل على رجاحة عقل وعمق إيمان وذلك قبل اكتشاف كروية الأرض .

ب ـ تنزلات القرآن :

سأل عطية بن الأسود التابعي ابن عباس رضي الله عنهما : « أوقع في قلبي الشك قوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ [البقرة : ١٨٥] وقوله : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ [القدر : ١] ، وهذا أنزل في شوال وفي ذي القعدة وفي ذي الحجة وفي المحرم وصفر وشهر ربيع ، فقال ابن

---

(١) مذكرات علوم القرآن ، ص/ ١٨ .

عباس : إنه أنزل في رمضان في ليلة القدر جملة واحدة ، ثم أنزل على مواقع النجوم رسلاً في الشهور والأيام »[1] .

اللافت للنظر قلة اهتمام السلف الصالح بهذه القضية وكأنهم فهموا المقام ، فلم يُوجّه سؤال إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، بل عرضت القضية نتيجة لسؤال عارض من تابعي إلى صحابي ، وهذا ما حدا ببعض الباحثين إلى استبعاد المصداقية أولاً واستبعاد الأهمية ثانياً ، مثل الدكتور فضل حسن عباس .

نفهم مما سبق أن القرآن الكريم تشرّف بثلاثة تنزيلات :

١ـ التنزل الأول :

وهو نزول القرآن الكريم إلى اللوح المحفوظ ، وهذا ثابت في النص : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج : ٢١ـ ٢٢] ، أي انتقل بطريقة عينية من علم الله إلى هذا المكان الغيبي ، ولا يعني الانتقال تماماً ، فلا بد أن يكون أيضاً في علم الله تعالى ، ولذلك نخلص إلى أنه سُجّل في اللوح المحفوظ ، ولم يرد على أية حال لفظ النزول لهذا الوجود ، إنما هو وجود وتسجيل ، قال تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ [الحديد : ٢٢] .

والأصل اللغوي لكلمة اللوح يؤكد أنه مستمد من لاح يلوح ، أي ظهر بمعلوماته للملائكة ، فهو عالم علوي يدل على عظمة علمه تعالى وحكمته وقدرته النافذة في عالميّ الغيب والشهادة ، وفيه قضاء الله بجزئياته منذ بدء الخلق .

---

(١) الأسماء والصفات للبيهقي ، ص/ ٢٣٥ ، والمستدرك : ٢/ ٢٢٢ ، وشعب الإيمان : ١/ ٣٧٠ . وتفسير ابن كثير : ١/ ٣١٠ ، والإتقان : ١/ ٤٠ .

أما كيفيته فخافية علينا إلا بقدر ما وصلنا من الخبر الصادق في القرآن والسنة ، وبهذا ندفع ما يتمسك به بعض المعاصرين من مرويات واهية بأن كلماته بحجم الجبل وبأن في الأمر أسطورة فإذا كانت أسطورة فقد أدركها السلف واستبعدوها .

من هذه المرويات التي ضعف سندها وتلقفها بعض المعاصرين ، ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما : « خلق الله اللوح المحفوظ كمسيرة مئة عام ، ثم قال الله تعالى : اكتب علمي في خلقي ، فجرى ما هو كائن إلى يوم القيامة »[1] .

وقال أبو حيان الأندلسي (٧٤٥ هـ) في البحر المحيط : « واللوح المحفوظ هو الذي فيه جميع الأشياء » . وثمة رأي مفاده أن الملائكة اطّلعوا عليه ، فقرؤوا فيه بعضاً مما يصنع بنو آدم من شرور ، فقالوا كما سجّل القرآن : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٣٠] فهو يعلم الروح وهم يعلمون الطين والروح خيّرة ، وعلى كل حال اللوح غيب مستور ، لا نناقش في ماهيته وكيفيته .

وإذا كنا نستبعد مصطلح النزول ، فلا مانع من إقرار الوجود في اللوح المحفوظ ، فهناك من يرى أن الآية السابقة لا تدل على أكثر من أن القرآن ثابت عند الله إلى جانب ثبات ما سُجّل من أقدار[2] .

٢ـ التنزيل الثاني :

وهو نزول القرآن الكريم من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء

---

(١) فتح القدير ، الشوكاني :/ ١٧ .

(٢) القرآن ونصوصه د . عدنان زرزور ، ص/ ٦١ .

الدنيا ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : « فُصل القرآن من الذكر ، فوضع في بيت العزة من السماء الدنيا ، فجعل جبريل ينزل به على النبي ﷺ »[1] .

والحديث بروايات مختلفة متفقة على المعنى ، كلها عن ابن عباس ، أخرجه الحاكم النيسابوري (٤٠٥هـ) والإمام النسائي (٣٠٣هـ) والإمام البيهقي (٤٥٨هـ)[2] .

والدليل القرآني على هذا النزول هو الآية : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ [القدر : ١] ، والآية : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ [الدخان : ٣] ، وقد نقل الإمام السيوطي عن القرطبي إجماع العلماء على هذا النزول[3] .

قال ابن عطية (٥٢٤هـ) : وأما الذي دلَّ على أن القرآن نزل جملة واحدة إلى السماء الدنيا : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ ، ومعلوم أنه لم ينزله كله إلى الأرض في ليلة واحدة ، ولكن أنزله إلى السماء الدنيا ، ثم أنزل منه الشيء بعد الشيء ، كما قال تعالى : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾[4] [الإسراء : ١٠٦] . أي كان قبل التنجيم مجموعاً وكلاً واحداً .

ويبدو أن العلماء أسهبوا في هذا التنزيل وتخيّلوا ما تخيلوا بعد أن أشاروا إشارةً سريعة إلى التنزيل السابق ، قال الحليمي (٥٦٧هـ) مفسّراً هذا النزول : « كان ينزل به من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في كل ليلة قدر ما ينزل على النبي ﷺ إلى الليلة التي تليها ، فينزل جبريل عليه

---

(١) المستدرك للحاكم النيسابوري : ٢/ ٢٢٣ .
(٢) راجع مناهل الفرقان : ١/ ٣٨ .
(٣) الإتقان : ١/ ٤٠ .
(٤) مقدمتان في علوم القرآن ، ص/ ٤٣ .

السلام ذلك نجوماً بأمر الله تعالى فيما بين الليلتين من السنة الأولى إلى أن ينزل القرآن كلّه من اللوح المحفوظ في عشرين ليلة من عشرين سنة »[1] .

هذا المقبوس يدل على تطلّع يسعى إلى الجمع بين كون القرآن جملة واحدة أساساً وكونه نزل مفرقاً بدءاً من ليلة القدر إلى الأرض ، ولكنه تطلع ذاتي ليس له سند ديني ، وقرينه تطلع المفسر مقاتل بن سليمان (١٥٠هـ) : « أنزله الله تعالى من اللوح المحفوظ إلى السفرة وهم الكتبة من الملائكة في السماء الدنيا »[2] .

فلا نعرف من أخبره بوجود ملائكة كتبة في السماء الدنيا ، وأن السَّفرة بعيدون عن العرش ، وعلى كلٍّ اختلف علماء الجرح والتعديل في أمر مقاتل ، فمنهم من وثّقه في الرواية ، ومنهم من نسبه إلى الكذب[3] وما ذكرناه يرجّح الحكم الأخير .

إن هذا النزول لا يُدفع ولكنه نزول بجملة واحدة فلا نقبل تفاسير جانحة عن جادة الحق كما لا نقبل ردّاً لخبر هذا النزول ، وقد ذكر البيهقي رضي الله عنه أن معنى ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ أنا أسمعنا الملك وأفهمناه إياها وأنزلناه بما سمع[4] .

وهكذا لا تبدي الآية ولا تفسيرها هنا وفي غير وضع أنه تنزيل بل هو إنزال ، فهو نقل كلي عن الله تعالى سماعاً ، وقد استند الراغب الأصفهاني إلى الدلالة اللغوية ، قال « وإنما خصّ لفظ الإنزال دون

---

(١) المرشد الوجيز ، ص/١٩ .

(٢) المرشد الوجيز ، ص/١٨ .

(٣) راجع تاريخ بغداد : ١٣/ ١٦٠ ، وميزان الاعتدال :٣/١٩٦ ، وتهذيب التهذيب : ١٠/ ٢٧٩ .

(٤) الأسماء والصفات ، ص ٢٣٤ .

التنزيل ؛ لما روي أن القرآن نزل دفعة إلى السماء الدنيا ثم نزل نجماً منجماً »[1] .

إن تحديد الليلة وإفرادها ما يفي بأنه نزول إلى السماء الدنيا جملة ، ولا يُقصد به التنجيم ، إن هذا واضح في آيات ثلاث فهي ليلة مباركة كما في آية الدخان : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ [الدخان : ٢] وتسمى ليلة القدر أخذاً من سورة القدر ، وهي إحدى ليالي رمضان أخذاً من آية البقرة : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، ولم يذكر قطعاً أن بداية الوحي كان في رمضان وإن وجد فلا يعارض النزول جملة في رمضان أيضاً .

٣ـ التنزيل الثالث :

وهو إعلام الناس من خلال النزول بالوحي على قلب النبي ﷺ ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : « أُنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ، وكان بمواقع النجوم ، وكان الله ينزله على رسول الله ﷺ بعضه في إثر بعض »[2] .

وفي نص آخر لابن عباس أيضاً رضي الله عنهما : « أنزل القرآن في ليلة القدر في شهر رمضان إلى السماء الدنيا جملة واحدة ، ثم أنزل نجوماً »[3] .

ولا شك أن الشق الأخير من النص الذي ذكر التنجيم متواتر بحفظ الأمة ومشاهدتهم ولا مجال لمناقشته ، فقد نزل القرآن الكريم مفرَّقاً كما

---

(١) المفردات ، ص/ ٥١٠ .

(٢) الحاكم ، ح (٢٨٧٨) والبيهقي في الأسماء والصفات ص/ ٢٣٤ ، والسنن الكبرى ح (٨٣٠٤) ، وشعب الأيمان ح (٢٤٩) ، والمعجم الكبير ح (١٢٤٢٦) .

(٣) المعجم الكبير ، ح (١٢٤٢٦) .

تشهد الأمة بعد شهادة القرآن ذاته بلفظ « فرّقناه » ، أجل بشهادة القرآن كان مجموعاً ثم نزل مفرقاً وذلك في ثلاث وعشرين سنة .

ويفيد مصطلح النجوم الزمان والمكان ، لأنه مصدر الفعل نجم بنجم للنبات حيث الظهور المرتبط بالمكان ويدل على الجرم المعروف المرتبط بالزمان ، فالحادثة والزمان المحيط بها دعيا إلى نزول القرآن مفرقاً .

ج ـ مناقشة الخبر :

لابد أن نذكر أن نقد هذه الأخبار تعرّض للسند والمتن معاً ، فهذه الأحاديث الموقوفة لا تمثل يقيناً ، هذا الخلاف وارد عند القدامى على قلة ، فلم يرد نقد في هذه المرويات إلا ما ورد عن الإمام المحدث الشعبي (١٠٣هـ) الذي صاغ رأيه الشيخ محمد عبده فقال : « إن ما جاء من الآثار الدالة على نزوله جملة واحدة إلى بيت العزة في السماء الدنيا ، مما لا يصح الاعتماد عليه لعدم تواتر خبره عن النبي ﷺ ، وأنه لا يجوز الأخذ بالظن في عقيدة مثل هذه ، وإلا كان اتباعاً للظن »[1] .

وعقّب الدكتور محمد أبو شهبة رحمه الله على هذا الكلام مؤكداً انتفاء التواتر الذي تحتاجه قضايا العقيدة فحسب فقال : « إن مسألة نزول القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليست من العقائد التي يتحتم تواتر الإخبار بها ، والتي لا بد فيها من العلم القطعي اليقيني ، مثل وجود الله وصفاته ونحو ذلك ، وإنما يكفي فيها الأخبار الصحيحة التي تفيد غلبة الظن ورجحان العلم . إن مثل هذه الحقيقة الغيبية لا بد فيها من تواتر الأخبار عن النبي ﷺ إن كثيراً من السمعيات يُكتفى فيها بالأخبار الصحيحة التي تفيد رجحان العلم بما دلت عليه ، وعلى هذا جرى العلماء سلفاً وخلفاً ،

---

(١) تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده ، ص/ ١٣٢ .

ثم إن تأويل الآيات بأن المراد ابتداء الإنزال حرف للآيات عن ظواهرها ، وأن ظاهر الآيات يشهد للنزول جملة واحدة ، والظواهر لا يعدل عنها إلا بصارف ، وأنّى هو ؟ »[1] .

وما سبق عن ابن عباس أحاديث موقوفة ، ولكن لها حكم الحديث المرفوع إلى النبي ﷺ ، بل قدّر العلماء المحدثون أن قول الصحابي الذي لا مجال للرأي فيه ولم يُعرف بالأخذ عن الإسرائيليات مما يفسد العقيدة حكمه حكم المرفوع[2] .

ولا ريب أن نزول القرآن من أنباء الغيب التي لا تعرف إلا من المعصوم عليه الصلاة والسلام ، وابن عباس لم يعرف بالأخذ عن الإسرائيليات ، وهو لا يجرؤ على التقوّل في معنى عقيدي أصيل في الوقت الذي يتخوف فيه من الاجتهاد في جزئيات العبادات ، فهكذا يثبت الاحتجاج بقوله .

ولكن الدكتور صبحي الصالح لا يوازن بين خبرين متواتر وصحيح فحسب ، بل يرى أن هذا الصحيح يعارض متواتراً قرآنياً ، فقال : « لأن هذه التنزلات المذكورة من عالم الغيب الذي لا يؤخذ فيه إلا بما تواتر يقيناً في الكتاب والسنة ، فصحة الأسانيد في هذا القول لا تكفي وحدها لوجوب اعتقاده ، فكيف وقد نطق القرآن بخلافه ؟ إن كتاب الله لم يصرّح إلا بتفريق الوحي وتنجيمه »[3] .

هذا ما ورد في نقد السند ، أما المتن فالكلام فيه أطول بين مؤمنين ومتظاهرين بالإيمان ، والحق أن يفعل أن بعض المفسرين قديماً قالوا :

---

(١) المدخل ، وأبو شهبة ، ص/ ٥٢ .

(٢) نزهة النظر ، ص/ ٤٣ .

(٣) مباحث في علوم القرآن ، ص/ ٥١ ، وراجع محاضرات في علوم القرآن د . نعيم اليافي ص/ ٣ .

إن النزول في ليلة القدر إطلاق للفعل على بدايته ، أي بدأ نزوله في هذه الليلة ، ثم تتالت الآيات والسور آخذين بعين الاعتبار كلام ابن عباس رضي الله عنهما على أنه اجتهاد ، وهذا تأويل غير ظاهر[1] .

وإلى هذا التأويل ذهب الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله (١٣٥٤هـ) ، وقال : « على أن لفظ القرآن يُطلق على هذا الكتاب كله ويطلق على بعضه ، وقد ظنّ الذين تصدوا للتفسير منذ عصر الرواية أن الآية مشكلة ، ورأوا في حلّ الإشكال أن القرآن نزل ليلة القدر من رمضان إلى سماء الدنيا وكان في اللوح المحفوظ فوق سبع سموات ، ثم نزل على النبي ﷺ منجماً بالتدريج ، وظاهر قولهم هذا أنه لم ينزل على النبي ﷺ في رمضان منه شيء خلافاً للآيات ، ولا تظهر المنّة ولا الحكمة في جعل رمضان شهر الصوم على قولهم هذا ، لأن وجود القرآن في السماء الدنيا كوجوده في غيرها من السموات أو اللوح المحفوظ من حيث إنه لم يكن هدايةً لنا ولا تظهر لنا فائدة في هذا الإنزال ولا في الإخبار به »[2] .

ويبدو أن روح الاعتزال تفوح من هذه الكلمات ، ومع هذا فقد أيّده الدكتور فضل حسن عباس أطال الله في عمره مرجحاً من خلال الدلالة اللغوية أن معنى الآية نزول الآيات الخمس الأولى من سورة العلق ، ثم راح يطيل في ذكر أسباب أولوية هذا وزمانه ، فهذه الآيات هي :

« أولاً : لأن القول بأن القرآن الكريم أنزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر من رمضان ، لم يصل إلينا من كتاب أو سنة صحيحة ، وإنما وردت آثار موقوفة عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وهي

---

(١) راجع علوم القرآن د . نور الدين عتر ، ص/ ٢٦ـ ٢٧ ، وتأويل الدكتور عدنان زرزور في القرآن ونصوصه ص/ ٦١ ، ودراسات قرآنية ، ص/ ٧١ .

(٢) تفسير المنار : ٢/ ١١٦ .

تحتاج إلى تمحيص من حيث أسانيدها ، والقول بأن مثل هذا لا يمكن أن يكون رأياً لابن عباس غير مسلّم ، فقد يكون ابن عباس فهم الآية هذا الفهم ، إن صحت هذه عنه .

ثانياً : يلزم على القول الأول ، وهو أن القرآن الكريم أنزل في شهر رمضان دفعة واحدة إلى السماء الدنيا ، عدم نزوله على سيدنا محمد ﷺ في رمضان ، لأنهم يرون أن الذي ذكرته الآيات في حديثها عن نزول القرآن في رمضان ، وهو نزوله دفعة واحدة إلى السماء الدنيا .

ثالثاً : إن المتدبّر للآية الكريمة يجزم بما لا يحتمل شكاً بأنها تتحدث عن نزول القرآن على النبي ﷺ ، فلنتدبر هذه الآية الكريمة : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، فلو كان المقصود نزوله إلى السماء الدنيا لم يكن هناك كبير فائدة في قوله : ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ ، إنما الأمر الذي يطمئن القلب وتستريح إليه النفس هو أن القرآن نزل على سيدنا رسول الله ﷺ هدى للناس .

رابعاً : إن الله تبارك وتعالى يمن علينا بالهداية بأن كرّمنا بهذا القرآن الكريم : ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ [الحجرات : ١٧] ، وهذه المنة إنما تتحقق بإنزال القرآن لنتعظ منه ونعتبر ، وهذا أمر غير محقق بنزوله إلى السماء الدنيا »[1] .

نضيف أن نزول القرآن إلى السماء الدنيا لا يعارض كونه نزل هداية ، فثمة تمهيد للنزول المفرّق ، وفي القرآن الآية : ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ [يوسف : ٣٦] والمعصور هو العنب على سبيل المجاز اللغوي بما سيكون ،

---

(١) إتقان البرهان : ١/١٤٩ـ ١٥٠ .

فالهداية غاية ، وليس يمنع أن يسجل الطالب في الكلية وغايته في نفسه التخرّج بعد سنوات .

ونقول : إن تلقّينا للقرآن الكريم عن طريق السند المتواتر عن النبي ﷺ هو المهم هنا ، ويبقى أن ما عرفناه عما يسبق هذا مجرد تشريف لا تكليف كيفما كان المصدر إلى هذا التأويل .

ولكن الذي نخشاه في دفع هذه المرويات الصحيحة أن نخالف الفهم الصحيح للآيات المذكورة في قضية تعدد النزول ، وأن نفتح ثغرة للدراسات المستغربة لكي تطعن فنقول : « تصور أسطوري يستحق أن يدرس في مجال المعتقدات الشعبية »[1] .

د ـ حكمة التنزلات :

لايوجد نص صريح حول تعدد التنزلات ، بل ورد كما سبق أنه للصون والحفظ وللهداية وللمكث كما في الآيات السابقة ، ما نذكره هنا حول إجمال التنزلات الثلاثة لا يعدو استنباطات أدلى بها العلماء .

١ـ قال أبو شامة المقدسي : « فيه تفخيم لأمره وأمر من أنزل عليه ، وذلك بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب ، المنزل على خاتم الرسل لأشرف الأمم ، وقد قربناه إليهم لننزله عليهم ، ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم منجّماً بحسب الوقائع لم يُهبط إلى الأرض جملة كسائر الكتب المنزلة ، ولكن الله تعالى باين بينه وبينها ، فجمع له الأمرين : إنزاله جملة ثم إنزاله مفرّقاً »[2] .

فالتشريف يتضح في مثال الملوك وعلية القوم عندما يُدخل عليهم ،

---

(١) مفهوم النص ، د . نصر حامد أبو زيد ، ص/ ١٠٠ .

(٢) المرشد الوجيز ، أبو شامة ، ص/ ٢٤ .

فيكون دخول من بعده دخول مما يدل على جلالة الشخص المقصود .

وثمة دليل حديثي يؤيد رأي أبي شامة ، فقد ورد أن الملائكة كانوا يتساءلون في كل نزول عن موضوع المنزل ، وهم في غاية الطاعة يتساءلون عن أمر بالطاعة لمخلوق من غير جنسهم .

روى النواس بن سمعان رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ : « إذا تكلم الله بالوحي أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله ، فإذا سمع أهل السماء صعقوا وخرّوا سجداً ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه الله بوحيه بما أراد ، فينتهي به إلى الملائكة ، فكلما مر بسماء سأله أهلها : ماذا قال ربنا ؟ قال : الحق ، فينتهي حيث أمر »[1] .

ويبدو أن المقصود أن الله عز وجل يأمر بنزول شيء من القرآن بعد أن نزل جملة إلى السماء الدنيا ، وهم يسألون ، لأن القرآن هذه المرة في طور تنزيل ، أي انتقال من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ، ومن التشريف إلى التكليف .

٢ـ إن النزول إلى السماء الدنيا يُلهب شوق النبي الكريم عليه الصلاة والسلام لمعرفة المزيد من الأوامر والنواهي والامتثال لها ونشرها بين الناس ، فالقرب يزيد في طاعة الشوق ، وهذا ملمح نفسي .

٣ـ هذه الحكمة تتصل بالتوثيق ومصداقية النص من الخارج ، « ففي تعدّد النزول وأماكنه ، مرة في اللوح ، وأخرى في بيت العزة ، وثالثة على قلب النبي ﷺ ، في ذلك التعدد مبالغة في نفي الشك عن القرآن ، وزيادة الإيمان به وباعث على الثقة به ، لأن الكلام إذا سجل في سجلات متعددة ، وصحّت له وجودات كثيرة ، كان ذلك أنفى للريب عنه ،

---

(١) مجمع الزوائد ، كتاب التفاسير ، سورة سبأ .

وأدعى إلى تسليم ثبوته وأدنى إلى وفرة الإيقان به ، مما لو سجل في سجل واحد ، أو كان له وجود واحد »[1] .

٤ـ ثمة فائدة للجملة والتفريق تؤكد إعجاز القرآن ، فهو في اللوح المحفوظ وفي السماء الدنيا على شكله مما نعرف في ترتيب المصحف[2] ، ونزل مفرقاً ، فسورة الكوثر قبل سورة البقرة نزولاً كما بيّن علم المكي والمدني .

وقد نزل بحسب الحوادث أحياناً ليؤكد واقعية التشريع الإسلامي ، ومع هذا التفريق نجد الإعجاز في الترابط الوثيق بين الآيات والسور ، هذا ما عني به الإمام فخر الدين الرازي (٦٠٦هـ) في تفسيره وقد وضع البقاعي إبراهيم بن عمر (٨٨٥هـ) كتاباً ضخماً سمّاه « نظم الدرر في تناسب الآي والسور » جاء في عدة مجلدات ، ثم وضع السيوطي كتاب « تناسق الدرر في تناسب السور » ، فخصصه للسور مختصراً إياه من كتاب له باسم « أسرار التنزيل » ، ولا نعدم كشف هذا الترابط في كثير من كتب التفسير .

ووضع الدكتور أحمد نتوف بدمشق رسالة ماجستير في هذا الموضوع الفكري البلاغي ، ونردف بأن الباحث ينبغي أن يتسلّح بمعرفة البنيوية وعلم النص الأدبي وعلم الدلالة ليبين دقائق الترابط والأنساق اللغوية في كل سورة ، قال الشاطبي (٧٩٠هـ) : « إن السورة الواحدة مهما تعددت قضاياها فهي تكون قضية واحدة »[3] .

---

(١) مناهل العرفان : ١/ ٣٩ـ ٤٠ .
(٢) الوحدة الموضوعية في القرآن ص/ ٧٤ .
(٣) الموافقات : ٣/ ٤١٤ .

هـ ـ ثنائية الدال والمدلول :

قد يحسب الدارس اليوم أن ما تداوله بعض العلماء القدامى في مبحث نزول القرآن باللفظ والمعنى شيء من الترف الذهني ، أو قضية لا تخطر ببال أحد ، وغير جديرة بالدراسة .

ولكن عندما يجد بعض المغرضين يفتشون بطون الكتب عن الشاذ والنافر ، بعد بحثهم عن تأكيد اعوجاج فكرهم يجد الدارس أن لا مناص من البحث في القضية لماماً أو بإطناب ، فالقضية خطيرة .

ومن المعروف نصاً أن الآيات الكريمة صرّحت بمصدر القرآن ، كما في الآية : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [النمل : ٦] والآية : ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : ١] .

نقف عند هاتين الآيتين دون غيرهما ، لنؤكد أن كلمة « لدن » ظرف أخص من (عند) ، لأنه يدل على ابتداء نهاية وهو أبلغ للدلالة على أن النبي عليه الصلاة والسلام قد تلقى القرآن من الله عز وجل .

زعم بعض الناس قديماً ـ ولكل عصر أشراره من الناس ـ أن جبريل كان ينزل على النبي ﷺ بمعاني القرآن ، فكان يقوم بالتعبير عنها بلغة العرب ، وقد تمسكوا بقوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء : ١٩٣ـ ١٩٤] كما ينقل الزركشي[1] .

وهو تأويل شائك جانح عن الحق مثله مثل رأي آخرين قائل بأن اللفظ لجبريل والمعنى موحى من الله ، وهو قول باطل أثيم يدل على إسفاف في الرأي ، وذلك أن الله تعالى قال : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة : ٦] .

---

(١) البرهان للزركشي : ١/ ٢٩١ وانظر مناهل العرفان : ١/ ٤٢ .

نقول : إن مفهوم القلب لا يعني الجانب العاطفي من الإنسان فحسب ، بل يعني كل ما هو جوهري بخلاف الجسم المادي ، فالقلب يشتمل على المدركات العقلية التي يتصل بها فهم الكلام وإتقان حفظه ؛ أي تلقي اللفظ والمعنى معاً .

ثم إن الآية الأخيرة تثبت مصطلح الكلام مسنداً إلى الله عز وجل ﴿ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ وهو القرآن ، والكلام كما هو معروف لفظ ومعنى ، ولا فصل بينهما إلا على سبيل التجريد ، كما أسند الكلام إليه تعالى في الحديث السابق : « إذا تكلم الله بالوحي أخذت السماء رجفة شديدة » .

ونعود للآيات : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : ١٩٢ـ ١٩٥] ، ونؤكد أن لا مانع في معطيات العلم الحديث اليوم من إرسال اللفظ والمعنى من مكان إلى آخر ، بل لا يُعقل أن يصل معنى من غير تصور لفظ ، بل نقول مع علماء اللغة : إن التفكير ألفاظ صامتة .

فهم هؤلاء خطأ أن ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ ﴾ يتعلق باسم الفاعل « المنذرين » ، وهو وهم ، والصحيح أن التعلق بالفعل « نزل » ، وقد أخر لأهمية الإنذار ، هذا الإنذار الموجّه إلى العرب وغيرهم كما في الآية : ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ ﴾ [الأنعام : ١٩] ، كما أن الإنذار باللغة العربية ليس يقتصر على النبي ﷺ ، فهناك هود وصالح وشعيب وإسماعيل عليهم السلام .

ونقل جلال الدين السيوطي عن الجويني إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله (٤٧٨هـ) قوله السديد في هذه المسألة : « كلام الله المنزّل قسمان : (قسم) قال الله لجبريل : قل للنبي الذي أنت مرسل إليه : إن الله يقول : افعل كذا وكذا ، وأمُرْ بكذا وكذا ، ففهم جبريل ما قاله

ربه ، ثم نزل على ذلك النبي ، وقال له ما قاله ربه ، ولم تكن العبارة تلك العبارة ، كما يقول الملك لمن يثق به : قل لفلان : يقول لك الملك : اجتهد في الخدمة ، واجمع جندك للقتال ، فإن قال الرسول : لا تتهاون في خدمتي ، ولا تترك الجند يتفرق ، وحثهم على المقاتلة ، لا ينسب إلى كذب ولا تقصير في أداء الرسالة ، و(قسم آخر) قال الله لجبريل : اقرأ على النبي هذا الكتاب ، فنزل به جبريل من الله من غير تغيير ، كما يكتب الملك كتاباً ويسلمه إلى أمين ، ويقول : اقرأه على فلان ، فهو لا يغير منه كلمة ولا حرفاً »[1] .

ويقول السيوطي بعد ذلك : « قلت : القرآن هو القسم الثاني ، والقسم الأول هو السنة ، لما ورد أن جبريل كان ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن » وهذا تقسيم جيد ولا حاجة إلى قسم ثالث وهو الحديث القدسي كما ذكر الزرقاني[2] ، فهو بكل اختصار سنة .

وإننا نقدّر هذا الاحتمال العقلي من الإمام الجويني ، ولكن لا دليل عندنا على أن جبريل كان يتصرف بوحي السنة وما يوازيها عند الأنبياء ، فدعوتهم وأفعالهم بمنزلة وحي السنة .

وعلى كل حال نستنبط مما سبق مستوى واحداً من الرسالة القرآنية وهو كلام لا يتغير ، وثلاثة مستويات هي السنة : وحي الله ، تعبير جبريل ، تعبير النبي عليه الصلاة والسلام ، وهذا الأخير يتغير مع الوقائع فترى للحديث ألفاظاً عدة .

ونضرب مثالاً للتوضيح : الحديث النبوي : « ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن » فلا شك أن الضمير (منا) لا ينسب إلى الله ولا إلى جبريل ،

---

(١) الإتقان : ١/ ١٥٣ .

(٢) مناهل العرفان : ١/ ٥٧ .

والأصل الذي ينسب إلى الله هو الدعوة إلى تجميل الصوت .

وإذا كان جبريل قد تلقّى القرآن سماعاً كما ذكر البيهقي في مستهل هذا البحث فلا نعرف كيفية السماع ، فالذي نكتفي به أنه تلقاه بالسماع الخاص أو بالتلقف الروحاني أو حفظه من اللوح المحفوظ ، ونزل بألفاظه الحقيقية التي خلقها الله ورتبها وفق ترتيب كلماته النفسية .

وثمة نص يتمسك به الدكتور طيب تيزيني وهذا ما يبين أهمية بحثنا الدال والمدلول إذ ينقل قولاً لأبي الحسن الأشعري : « إن القرآن المعجز إنما هو الذي لم يفارق الله عز وجل قط ، ولم يزل غير مخلوق ، ولا سمعناه قط ، ولا سمعه جبرائيل ولا محمد عليهما السلام قط ، إن الذي يقرأ في المصاحف ونسمعه ليس معجزاً ، بل مقدور على مثله . . إن القرآن لم ينزل به قط جبرائيل على قلب محمد عليه الصلاة والسلام ، وإنما نزل عليه شيء آخر هو العبارة عن كلام الله ، وإن القرآن ليس عندنا البتة إلا على المجاز ، وإن الذي نرى في المصاحف ونسمع من القرآن ونقرأ في الصلاة ونحفظ في الصدور ليس هو القرآن البتة ولا شيء منه كلام الله البتة بل هو شيء آخر ، وإن كلام الله تعالى لا يفارق ذات الله عز وجل »[1] .

وهو كلام خطير الشأن ، ناشز نافر منفّر ، والذي يلفت النظر ما أضافه الدكتور تيزيني من أن الأشعري رضي الله عنه وأصحابه هم جميع أهل السنة ، فكأنه ما سبق بعالم وكأن لا وجود لأهل الحديث والظاهرية !

ولم يخطر ببال الباحث التشكيك بالنص من خلال العداوة الفكرية بين فرقة الظاهرية ممثلة بابن حزم وفرقة الأشعرية ممثلة بالأشعري ،

---

(١) الفصل في الملل والنحل ، ابن حزم : ٤/ ٢٥٧ .

وما نقوله منهج عقلي اتبعه المحدثون في رفض كثير من الأحاديث الموضوعة ، فلا ينبغي أن يغيب عن ثقافة المعاصر الذي يحرص على عقلانية البحث .

فإن صح هذا الكلام ، فهو وهم من أثر التعلق بعلم المنطق وكثرة تنزيه القرآن الكريم عن كونه مخلوقاً كما ذهب المعتزلة ، وهو وهم لا يقول به مسلم ، لأنه يخالف سائر طوائف السنة إلى جانب الأشعرية أنفسهم ، فهو كلام يخالف منطوق القرآن والسنة الشريفة .

وليس كل ما يرد في تراثنا حقائق علمية لا ترد ، ولا ينبغي التمسك بالرواية الواهية لمحاولة دحض الإجماع الإسلامي وزرع التشكيك بالنص بكونه قابلاً للتحريف ، وهذا ما تسعى إليه بعض الدراسات قاصدة إبراز الطابع البشري للقرآن والمصدر البشري له والعياذ بالله .

* * *